الفصل الثانى

خارج هذا العالم

النظرية السوسيولوجية لتالكوت بارسونز(١)

فى سنة ١٩٣٧ خـــلال فترة الكســـاد والبرنامج الجديد للانعاش الاقتصادى ، وانبعاث الحركات الاجتماعية لليسار والراديكالية العقلية ، والحرب الأهلية الاسبانية واقتراب الصراع مع الدول الفاشـــية ، نشر تالكوت بارسونز Talcatt Parsons دراســة فى النظرية الاجتماعيـــة بعنوان (بنـاء الفعـل الاجتماعى The Structure of Social Action) الذى تجنب بوضوح أى اهتمام بالأزمة السياسية والاقتصادية المعاصرة من أجل تقديم أفكار بعض المفكرين الأوربيين الأول(٢) ، لـكى يستخلص منهم اطارا مجردا وعاما للغـاية للتفـكير السوسيولوجى . وكما يشير بارسونز فى مقدمة الطبعة الشـــعبية للكتاب ، كان الموضـــوع الرئيسى للكتـاب يتمثـل فى ابراز أعمـــال الفـرد مارشال Alfred Marshall وباريتـو Pareto ، ودوركيم Durkheim وماكس فيبر Max Weber فى مواجهة الخلفية الفكرية المتمثلة فى طرازين سابقين للتفكير الاجتماعى ـ المثالية الألمانية والوضعية النفعية ـ باعتبارهما « حركة أسـاسية فى بناء التفكير النظرى » ، « ومرحلة جديدة تماما فى تطور الفكر الأوربى المهتم بقضايا الانسان والمجتمع » .

ويفترض أن تتكون (الثورة الأساسية) كما يسميها بارسونز فى موضع آخـر من حقيقـة أنه برغم التنوع الظاهر فى اهتمامات ومناهج

---

(١) Reprinted with minor revisions, from the New York Review of Books XII (8) (6 November 1969).

(٢) In his preface to the second edition of **the structure of Social Action** (New York, 1949).

فقد حذف كلية برغم أن بارسونز فى أكثر أعماله حداثة استعاد معظم نظرية سبنسر عن التطور الاجتماعى(٦) · وفى مقدمة الطبعة ذات الغلاف الورقى لكتابه (بناء الفعل الاجتماعى) سلم بارسونز ببعض من هذه الاستبعادات ، نجد انه حتى الان لم يصل الى المرحلة التى يسلم فيها بأن كل تفسيره لتشكل علم الاجتماع الحديث يحتاج الى تعديل جذرى ·

ومما لا شك فيه ، فقد قصد بارسونز على أية حال أن يسهم بفصل فى تاريخ الأفكار · حيث كتب فى تصديره للطبعة الثانية من (بناء الفعل الاجتماعى) (أنه قصد به أساسا أن يكون اسهاما فى العلم الاجتماعى النظرى وليس التاريخ ، أعنى تاريخ التفكير الاجتماعى · ولقد كان هدف بارسونز أن يؤسس ويوضح مجموعة المفاهيم المتميزة التى يستند اليها ، من وجهة نظر علم الاجتماع ، العلم الجديد للمجتمع · ويمكن تتبع تقدم هذا التناول على مدى الثلاثين سنة الماضية فى سلسلة من المؤلفات الهامة التى تتضمن (النسق الاجتماعى The Social System ١٩٥١) ، (نحو نظرية عامة فى الفعل Toward a General theory of Action بالاشتراك مع أدوارد شيلز Edward Shills وآخرين ١٩٥١) (والاقتصاد والمجتمع Economy and Society بالاشتراك مع نيل سملسر Neil J. Smelser ١٩٥٦) وفى مجلدات عديدة من المقالات أكثرها حداثه مؤلفه (النظرية السوسيولوجية والمجتمع الحديث Sociological theory and Modern Society ١٩٦٧) ، والسياسة والبناء الاجتماعى Politics and Social Structure ١٩٦٩)(٧) · وفى المؤلفين اللذين ظهرا عام ١٩٥١ حدد بارسونز لأول مرة وبطريقة مستقلة تماما (نظريته فى الفعل) · وفى مؤلفه عن النسق الاقتصادى عام ١٩٥٦ قدم بعض التعديلات الهامة لها · وحديثا أوجز الأفكار الأساسية لهذه النظرية بالطريقة التالية :

---

(٦) Parsons, **Societies : Evolutionary and Compartive Perspectives** (New York, 1966), Chapter 2.

(٧) تتداخل مضامين هذين المجلدين ، بل تظهر بعض من أكثر هذه المقالات أهمية · والتى سأناقشها فيما بعد ، فى كلا المجلدين ·

« يتكون الفعل من العمليات والبناءات التى يشكل بها البشر أهدافهم ذات المعنى ، أو يحققونها فى المواقف الواقعية · وتتضمن كلمة (ذات المعنى Meaningful) المستوى الرمزى أو الثقافى للتمثيل والاسناد · اذ تتضمن الأهداف بالاضافة الى تحقيقها تنظيم نسق الفعل ـ الفردى أو الجمعى ـ وتعديل علاقته بموقفة وبيئته فى اتجاه محدد ··· ويعتبر تصنيف الانساق الفرعية العامة للفعل البشرى ـ الكائن العضوى The Organism الشخصية Personality ، النسق الاجتماعى Social system ، ونسق الثقافة Cultural system نموذجا توجيهيا Paradigm يمكن الاستعانة به فى مجال الفعل ···

ويحلل النموذج التوجيهى أى نسق للفعل بالنظر الى المقولات الأربع التالية : ١ ـ المقولات التى تهتم بدعم أنماط السيطرة والضبط للنسق ٢ ـ التكامل الداخلى للنسق ٣ ـ اتجاه نسق الفعل لتحقيق الأهداف بالنظر الى بيئته ٤ ـ تكيفه الأكثر عمومية مع الظروف الشاملة للبيئة ـ كمثال البيئة الفيزيقية ، وبيئة اللافعل » · : Societies Evolutionary and Comparative Perspective, PP. 5, 7.

وبقدر ما أعرف ، لم يقدم بارسونز تحليلا عميقا لمفهوم (الفعل) ؛ ولم يناقش متضمنات هذا المفهوم بالنسبة لطبيعة التفسيرات التى قد تكون ممكنة ، والتى ينبغى البحث عنها فى علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الأخرى · وتوحى اشاراته ، فى الفقرة التى اقتبستها عن (الأهداف ذات المعنى) أو (تحقيقها) أو (الغرض) أو (اطار الغاية ـ والوسائل) وأهميتها بالنسبة لمفهوم الفعل ، أنه يصنف نفسه مع هؤلاء المفكرين ـ الذين يبدأون بالماركسيين الهيجليين (ماركيوز Marcuse) والوجوديين الماركسيين (سارتر Sartre) ومؤرخى الفلسفة (كولنجوود Collingwood) وبعض أتباع فتجنشتين مثل (فنش Winch) الذين يرفضون فكرة علم للمجتمع ويعتبرون الدراسات الاجتماعية دراسات فلسفية أو تاريخية ·

غير أن ذلك لم يكن المسار الذى اتبعه بارسونز ، اذ تبدو برهنته المتضمنة فى مؤلفه بناء الفعل الاجتماعى (والمشتقة عن ماكس فيبر) كما لو أن نظرية الفعل تحتل منطقة وسط بين تصور العلم الطبيعى أو الوضعى لعلم الاجتماع ، وبين وجهة النظر المثالية التى تؤكد على دور (الحدس intuition) فى فهم المجتمع ، ولقد استمر بارسونز فى البرهنة من هذا الموقع فى مقالة أخيرة له عن ماركس فى مؤلفه (النظرية السوسيولوجية والمجتمع الحديث) ومع ذلك لم يستكشف طبيعة منطقة الوسط هذه ، وان على من يبحث عن التثقيف المنهجى أن يتجه لمكان آخر بحثا عن تحليل لمفهوم الفعل ، على سبيل المثال فى دراسة أخيره الفها لوش A. R. Louch بعنوان (التفسير والفعل الانسانى Explanation and human action) ، حيث يطرح تفسيرا يتعلق أساسا بالفعل الانسانى فى سياق محددة لمواجهة محاولات تصنيف السلوك الانسانى بالنظر الى قوانين عامة ، هذا بالاضافة الى فحص نقدى لبعض تعميمات بارسونز ٠

فتبنى بارسونز ، حينئذ ، لفكرة (الفعل) يعنى أنه قد كرس نفسه أساسا لتأسيس تصنيف محكم عن نماذج وبناءات الفعل الاجتماعى بلغة ذات طابع ابداعى أصيل ٠ اذ طبق بارسونز النموذج التوجيهى الموضح فى الفقرة التى اقتبستها سابقا على النسق الاجتماعى من أجل تحديد الأنساق الفرعية الأربعة للمجتمع ٠ فالنسق الفرعى الأول هو النسق الذى يتشكل من النظم المسئولة عن الحفاظ على النمط - Pattern Maintenance ، أو بعبارة أخرى المسئولة عن دعم القيم الثقافية العامة للمجتمع ، وهى النظم الدينية بشكل رئيسى ٠ أما الثانى فيتكون من النظم التى تهتم أساسا بتكامل المعايير والقواعد المتباينة والحفاظ عليها ، وهى بالأساس النظم الشرعية ـ المحاكم المهن القانونية ، والبوليس ٠ أما الثالث فهو النسق السياسى الذى تقع عليه مسئولية تحقيق الهدف الجمعى (المصلحة أو مصير الشعب ،) ، ويعتبر الاقتصاد هو النسق الفرعى الرابع الذى يؤدى وظيفة التكيف مع البيئة الطبيعية (أعنى الانتاج) ٠

وبالتالى يمكن تحليل كل من هذه الأنساق الفرعية بمساعدة النموذج التوجيهى · فمثلا يحتوى الاقتصاد كنسق فرعى على أربعة أنساق فرعية تهتم بالحفاظ على النمط أو التكامل ، وتحقيق الهدف ، والتكيف داخل الاطار الاقتصادى · وفى الحقيقة درس بارسونز النظام الاقتصادى بهذا الأسلوب فى مؤلفه الاقتصاد والمجتمع (الفصل الرابع) ، وتمثل مقالات بارسونز عن التأثير والقوة السياسية، محاولات أولية لانجاز تحليل مماثل للنسق السياسى · وليس واضحا بالنسبة لى كيف يمكن انجاز عملية التقسيم هذه أو ما هى النتائج ·

وتعتبر سنوات ما بعد ١٩٥٢ ، وهى التى شهدت احكام هذه الأطر التصنيفية ، أخصب فترة فى حياة بارسونز حيث بدأ يتسع الاحساس بتأثيره فى كل من علم الاجتماع الأوربى والأمريكى ، وبالطبع كانت فترة محافظة وغير خلاقة من الناحية السياسية ، حيث سيطرت على الولايات المتحدة بصفة خاصة العلاقات والاتجاهات التى ارتبطت بالحرب الباردة ، والأيديولوجيات الساذجة المتعلقة بالنمو الاقتصادى والوفرة ، والتى وجدت تعبيرها الأكثر كفاءة الى حد ما فى كتابات مثل مؤلف روستو W. W. Rostow (مراحل النمو الاقتصادى The Stages of economic Growth ومؤلف جالبريث J. K. Galbraith مجتمع الوفرة . The Affluent Society

ويتسق علم اجتماع بارسونز الى حد كبير مع هذه الحالة العقلية العامة · فهو لم يطرح قضايا أساسية حول بناء المجتمع الأمريكى ، وان قدم مجموعة من المقولات التى يمكن فى اطارها ترتيب بعض عناصر هذا البناء بدقة ووضوح · اذ يميز بارسونز مثلا ، فى مؤلفه النسق الاجتماعى نموذجا لبناء اجتماعى يسميه نمط الانجاز ـ الشمولى - Universalistic achievement Pattern · وهو يوضح وصفه لهذا النموذج بمطابقة الجوانب العديدة للمجتمع الأمريكى ـ البناء المهنى ، الأسرة ، التنوع الدينى ، والفردية الاقتصادية ـ مع المقولات التى طورها · وعلى هذا النحو يتضمن الاطار التصورى لبارسونز نظره الى

المجتمع كبناء مستقر ودائم ، فى حين يعطى انتباها أقل للتوتر والصراع والتغير الذى قد يظهر فى اطاره ٠

ومع عودة ظهور القلق والتغير المتواصل للحياة السياسية والاجتماعية فى كل مكان فى حقبة الستينات ، تلاشى الاهتمام بنظرية بارسونز ، على الرغم من الجهد الذى بذله بارسونز فى كتاباته الأخيرة لكى يربطها بقوة أكثر بأحداث واهتمامات الوقت الحاضر ٠ اذ يبدو أن علماء الاجتماع الأمريكيين الشبان قد تحولوا الى مصادر أكثر راديكالية لاستنتاج أفكارهم ، بينما اتضحت تماما الأشكال الجديدة للماركسية فى أوربا ، والاتجاه البنائى لشتراوس Léve - Strauss والأفكار المستنبطة حديثا من كتابات علماء الاجتماع الكلاسيكيين (من ماكس فيبر أساسا) ٠ بالاضافة الى الانتقادات الفلسفية العديدة للعلوم الاجتماعية ، والتى قدمت الآن الاطار العقلى التى تطرح فى نطاقه وتناقش الموضوعات الأساسية للنظرية السوسيولوجية ٠

وحتى فى الوقت الذى كانت تناقش فيه أفكار بارسونز بدرجة أكثر اتساعا بين علماء الاجتماع ، فان تأثيرها على الفكر الاجتماعى الشامل أو على المناقشات المتعلقة بالسياسة العامة ، يبدو أنه كان ضئيلا بشكل مثير ٠ حقيقة أن بعض علماء الاجتماع الأمريكين الذين تميزوا بالنشاط فى المطالبة بنهاية الأيديولوجيا ، والذين أيدوا الكونجرس فى المطالبة بالحرية الثقافية ، قد بدأوا فى الرجوع الى علم اجتماع بارسونز ، وفى احدى الحالات (مثل ادوارد شيلز) أصبحوا مرتبطين مباشرة باسهامات بارسونز ٠ وبرغم أن فكرة (نهاية العصر الأيديولوجى) قد بدأت أصلا فى أوربا بهجوم ريمون أرون على الستالينية Stalinism فى مؤلفه أفيون المثقفين The Opuim of the intellectuals وكتابات البيركامى Camus ٠ غير أنه حينما تناول الكتاب الأمريكيون الموضوع وبخاصة دانيل بل Daniel Bell وسيمور لبست S. M. Lipset فمن الواضح أن مصدرهم لم يكن نظرية بارسونز الاجتماعية ، بل على الأصح تحرر هؤلاء الكتاب من وهم معتقداتهم الماركسية أو الاشتراكية الأولى ، وهو ما يعكس ، ربما بشكل مبالغ فيه ،

انحرافا عاما للتفكير الراديكالى · ولم تدخل افكار بارسونز ببساطة مثلما دخلت أفكار ووركيم وفيبر أوفبلن Veblen وديوى Dewey فى الولايات المتحدة فى مجال وضع السياسة أو المناقشة السياسية العامة· بل على العكس اتجهت لكى تعكس بطريقة سلبية ، وفى نطاق محدود للعلوم الاجتماعية ، مزاجا كان يسود فعلا المجتمع بكامله ·

ويمكن تفسير هذه العزلة العقلية فى أحد جوانبها بسبب الصعوبات التى تنشأ عن أسلوب بارسونز التنظيرى · فالحقيقة أن ما قيل كذبا عن كوندرسيه Condorcet انما يصدق عليه تماما ، من حيث أنه مدخل فى التعقيد فى أسلوب كتابته · وربما كان ذلك سببا عميقا فى أن أعمال بارسونز فشلت بصفة عامة فى تأسيس أى اثارة عقلية أو احساس بالاكتشاف ، وبالتأكيد ارتبط هذا الفشل بحقيقة أن معظم ما يقوله عن الحياة الاجتماعية ، حينما يعبر عنه بلغه عادية ، يثبت أنها ليست سوى ملاحظات مبتذلة · وقد تناول س · رايت ميلز هذه المسألة علانية وبنوع من عدم الاحترام فى مؤلفه الخيال السوسيولوجى Sociological imagination بمساعدة بعض الترجمات لقضايا مستمدة من النظرية الكلية لبارسونز Parson's grand theory · وقد يصبح مملا أن نعيد الآن كل الفقرات التى ترجمها ميلز ولكنى سوف أقتبس فقرة واحدة بغرض التوضيح · اذ يكتب بارسونز فى مؤلفه النسق الاجتماعى (ص ٤١٠) :

« يعنى التمسك بالقيم المشتركة ، من الناحية الدافعية أن لدى الفاعلين عواطف مشتركة تدعم أنماط القيم ، ويمكن تحديدها لكى تعنى أن التوافق مع التوقعات ذات الدلاله تعتبر (حالة حسنة) نسبيا بغض النظر عن أى فائدة آدائية محددة يمكن الحصول عليها نتيجة لهذا التوافق ، كما هى الحال فى تجنب الجزاءات السلبية · وفضلا عن ذلك ، فبينما قد يلائم هذا التمسك بالقيم المشتركة حاجات الاشباع المباشر للفاعل ، فانه عادة ما يكون له جانبه الأخلاقى ، أيضا ، حيث أن هذا التوافق يحدد بدرجة ما ، مسئوليات الفاعل فى أنساق الفعل الاجتماعى الأوسع التى يشارك فيها · ومن الواضح أن الجماعة تعتبر الجوهر المحدد للمسئولية ، التى تتشكل من توجيه محدد للقيم المشتركة » ·

وبالتالى يترجم ميلز : « حينما يشترك البشر فى نفس القيم ، فانهم يميلون الى التصرف وفقا للأسلوب الذى يتوقع كل منهم أن يتصرف به الآخر · وفضلا عن ذلك فغالبا ما ينظرون الى هذا التوافق باعتباره حالة جيدة جدا ، حتى ولو بدا مضادا لمصالحهم المباشرة » · ثم يختتم قائلا : « انه بأسلوب مماثل باستطاعة الباحث أن يترجم الـ ٥٥٥ صفحة لكتاب النسق الاجتماعى فى حوالى ١٥٠ صفحة من الانجليزية الصحيحة ، وقد لا تكون النتيجة مثيرة » ·

لقد عبر لوش A. R. Louch فى مؤلفه (التفسير والفعل الانسانى Explanation and human action) عن بعض النتائج المماثلة ربما بجدية أكثر · فقد اقتبس فقرة من مقالة بارسونز (النظرية العامة فى علم الاجتماع General theory in Sociology) المنشورة الى جانب مقالات أخرى فى مؤلف ميرتون K. R. Merton (علم الاجتماع اليوم Sociology today ١٩٥٨) حيث علق :

« انه يمكن اعتبار الجيل Generation والجنس Sex المحوريين الرئيسين للتباين فى العائلة النووية · اذ يمكن الحديث عن أدوار مختلف أعضاء العائلة بالنظر الى المحاور الداخلية ـ الخارجية اذ كنا ننظم العائلة عضويا على أساس الأجيال ، وبالنظر الى محاور الآدائى ـ الاكتمالى Instrumental - Consummatory اذا كنا نفكر فى التباين بالنظر الى الجنس · وأعتقد أن ذلك يعنى ان للأباء سلطة على الأبناء ، حيث يميل الرجال لأن يكونوا مصدر الدخل · ومرة أخرى · ما هو الجديد ؟ · اذ يتحول بناء بارسونز المحكم لكى يصبح أسلوبا لتصنيف التفاعلات العديدة بين الأفراد والجماعات · ويصبح المصدر الوحيد للدهشة أن ما نعرفه فعلا عن النشاط الانسانى يعاد صياغته فى اطار هذا النسق الاصطلاحى والتصنيفى » ·

ويبدو لى أن تقديم ما هو عادى ومبتذل من خلال لغة رنانة نتج بقدر ما عن عدم احساس بارسونز بالموضوعات السياسية والاجتماعية الحقيقية · فعلى خلاف المفكرين الذين شرع أصلا فى تفسير أفكارهم

ـ مارشال ، باريتو ، دوركيم ، فيبر ـ يبدو أن بارسونز ليس لديه اهتمام قوى بالحياة السياسية ولا رؤية عميقة لمشاكلها · وحتى حينما يشرع فى دراسة مسألة سياسية هامة ، كما فعل بشكل متزايد فى السنوات القليلة الأخيرة ، استجابة ، كما هو واضح ، لضغوط خارجية ، فان ميله الطبيعى تمثل ببساطة فى اعادة صياغة بعض الأحكام العامة ، السائدة والمتفق عليها ، فيما يتعلق بالموضوع ، وفقا لاطاره التصورى حيثما كان ذلك ممكننا ·

وتوجد أمثلة عديدة لذلك فى مقالاته الأخيرة ، وان كانت مقالته عن الأمريكيين الزنوج Negro Americans بعنوان (المواطنة الكاملة للأمريكيين الزنوج Full Citizenship for the Negro Americans) توضح هذا الاتجاه بصورة أفضل · وقد نشرت أول مرة فى ١٩٦٥ ، وهى تصوغ ، بمساعدة أفكار أخذت عن مفكرين ينتمون الى تيار فكرى آخر (بصفة خاصة مارشال T. H. Marshall وجونار ميردال Gunnar Myrdal فضلا عن أفكاره ـ وجهة نظر فى قضية الزنوج أصبحت منتشرة بين علماء الاجتماع الأمريكيين فى الأيام الأولى لحركة الحقوق المدنية ، وهى وجهة نظر ليبرالية نظرت الى الزنوج باعتبارهم آخر أقلية اثنية مؤهلة للانصهار ، والاندماج الكامل فى المجتمع الأمريكى · ولم يسهم بارسونز بأى أسلوب برؤية ثاقبة لتاريخ الأمريكيين السود وظروفهم ، أو حتى يتوقع الاتجاهات الجديدة التى قد تسلكها حركة الزنوج فى السنوات القليلة التالية · والآن يبدو تفاؤله المتملق فيما يتعلق بحل المشكلة التى يراها من جانب واحد كخلاف أخلاقى أكثر من كونها تصادما للمصالح ، ساذجا الى حد كبير(٨) ·

ويوضح نفس المدخل مقالة أخرى حديثة عن الجامعات وحركة

---

(٨) يمكن النظر بنفس الطريقة الى مقالتين سابقتين ، الاولى عن (الديموقراطية والبناء الاجتماعى فى المانيا النازية) ، والثانية عن (بعض الجوانب السوسيولوجية للحركات الفاشية) · فلم يحلل بارسونز ظهور النازية او اندماج قوتها فى نفس الوقت-الذى وقعت فيه هذه الاحداث · وقد نشر مقالاته هذه سنة ١٩٤٢ حينما اصبحت الافكار التى صاغها متداولة فعلا بشكل علنى · اذ نشرت روح المينيرفا The Owel of Minerva جناحيها على النسق بالنسبة لعلم اجتماع بارسونز كما فعلت بالنسبة لفلسفة هيجل ·

الطلبة(٩) · وهنا أيضا يفسر بارسونز رؤية مالوفة · اذ يصف بناء الجامعات الأمريكية وتطورها دون أن يطرح مجرد تساؤل يتعلق بما اذا كانت الأزمة التى تمر بها الآن تتطلب اصلاحات أساسية فى بنائها ؟ · ففى دراسته لسلطة الجامعة نجده يميز فى اطارها بين أربعة عناصر أساسية ـ الأمناء Trustees ، الادارات Administrations ، الكليات Faculties والطلبة Students ، وقد شبه العلاقات المتبادلة بينها بالانفصال بين السلطات فى المجال الحكومى (ولكن بدون أى محاولة لتوضيح المعنى الذى تطرحه المماثلة) · وقد استمر فى التأكيد على (ضرورة أن تكون للادارات والأمناء أنواع محددة من السلطة على الكليات والطلبة) برغم أن هذه السلطة تتحدد (أو ينبغى أن تتحدد بالحرية الأكاديمية للجماعتين الأخريين) · ولكن ما هى الأسس التى أكد بناء عليها أنه ينبغى أن تكون للمديرين والأمناء (وبخاصة الفئة الأخيرة) مثل هذه السلطة فى الجامعة ؟ وفى الحقيقة ، ما أهمية وجود الأمناء أساسا ؟ ·

لم يناقش بارسونز هذه القضايا ، فقد كانت جميعها من الوضوح حتى أنها ببساطة لم تخطر بباله · وهكذا ، ففى الوقت الذى كان فيه موضوع السلطة Power (الاستبدادية وغير المسئولة) المتركزة بالتحديد فى أيدى الأمناء أو أعضاء مجلس الجامعة ، من أكثر الموضوعات تفجرا فى حرم الجامعات الأمريكية ، نجد ان بارسونز يوافق على البناء الحالى للجامعات الأمريكية غير ناقد اياه ولم يقدم أكثر من تقرير وصفى للتنظيمات التقليدية ·

فاتجاه مدخل بارسونز لدراسة الموضوعات الاجتماعية والسياسية، واعتبار البناء الحالى للمجتمع الأمريكى بناء ثابتا لا يتغير ، وفى أكثر الاحتمالات قادر على النمو التدريجى وفقا لمسار محدد وضيق للغاية ، لم يظهر من فراغ ، أو بأى أسلوب بسيط من أيديولوجيا محافظة · وانما

---

(٩) The Academic System : A sociologist's view, **The Public interest, No. 13. (Fall, 1968).**

يكمن مصدر هذا الميل أيضـــا فى تصـــدر بارســـونز لطبيعة النظرية السوسيولوجية ، التى كانت واضحة فى انجازه منذ البداية ، والتى عبر عنها بوضوح فى الصفحات الأولى لمؤلف النسق الاجتماعى :

« يتمثل موضوع هـــذا المجلد فى استعراض وتوضيح الاطـــار التصورى لتحليل الأنساق الاجتماعية بالنظر الى الاطار المرجعى للفعل · فالمقصود به أن يكون عملا نظريا بالمعنى الأســاسى للكلمة · فاهتمامه المباشر ليس التعميم الامبيريقى فى ذاته أو المنهج ، برغم أنه سوف يتضمن بالطبع قدرا واضحا منهما · ومن الطبيعى ضرورة اختبار الاطار التصورى المقدم هنا بالنظر الى فائدته فى البحث الامبيريقى · بيد أن ذلك ليس محاولة لتقديم تقرير نظرى عن معرفتنا الامبيريقية ، مثلما قد يكون ذلك ضروريا بالنسبة لانجاز عن علم الاجتماع العام · فالتركيز هنا على الاطار النظرى أما التناول المنظم لاستخداماته الامبيريقية فسـوف نهتم به بشكل منفصل » ·

وبذلك ، يستبعد بارسونز من اطار النظرية (بالمعنى المحدد لذلك) عنصرين كانا عادة يعتبران ، على العكس عناصر حيوية بالنسبة لعلم الاجتماع النظرى · ويتمثل أول هذه العناصر فى محاولة صياغة التعميمات الامبيريقية وتأسيس الارتباطات المنظمة بينها · حيث تمت هذه المحاولات بأساليب عديدة فى تاريخ التفكير الاجتماعى · فهى تنشأ فى بعض الحالات نتيجة للمواجهة المباشرة لواقعة أو ظاهرة اجتماعية محيرة ، تدفع الى البحث عن تفسير ما · وقد تكون ظاهرة من النوع الذى لم ينل حتى هذه اللحظة انتباها كثيرا (حتى تكشف عن أهميتها القدرات التخيلية لمفكر مبدع) ، وقد تكون شيئا متميزا أو جديدا تماما فى الحياة الاجتماعية · وينتمى تفسير ماركس للثورة الفرنسية ونشأة الحركات الاشتراكية الى هذه الفئة الأخيرة · وفى حالات أخرى يدفع عدم الاقتناع بالتعميمات أو الأطر التفسيرية لمفكرين سابقين الى نشأة نظريات جديدة ، مثلما شرع ماكس فيبر فى تعديل النظرية الماركسية عن أصل الرأسمالية ، أو حينما قدم دوركيم تفسيرا سوسيولوجيا للانتحار يتناقض مع التفسيرات المتنوعة (السيكلوجية وغيرها) التى كانت سائدة عند نهاية القرن التاسع عشر ·

هناك خاصية مشتركة بين كل هـذه الحالات ، تتمثل فى أنه بعد وضوح المشـــكلة وصياغتها ، يفترض تفسيرا لحلها • وفى انجازات بارسونز فان بؤرة الاهتمام هذه ، هى المفقودة منذ البداية • طالما أنه فى تفسيره لأعمال علماء الاجتماع الكلاسيكيين قد أغفل مســـألة صـــدق تفسيراتهم لصالح التركيز على طبيعة المفاهيم التى يستخدمونها •

وقد اتبع أسلوبا مماثلا فى دراساته الاجتماعية الأكثر حداثة ، عن طريق تقديم تصنيف وصفى للظواهر فى اطار مجـال محدد ، أو بتقديم تحليل للمفاهيم المستخدمة فى هذا المجال بدلا من تقديم تفسير للوقائع فى علاقتها بمشكلة واضحة التحديد • ولقد وضحت هذه المســـألة الأخيرة فعلا فى المقالات التى كتبها عن الأمريكيين الزنوج ، والجامعة الأمريكية ، غير أننا من الممكن أن نجد مثالا آخـر لافتـا للنظر فى مقالة له بعنوان (حول مفهوم القوة السياسية On The Concept of Political Power) فى مؤلفه (النظرية الاجتماعية والمجتمع الحديث) • حيث تعتبر هـــذه المقالة مكرسة أساسا للتعديل والتوضيح والتحليل التصورى ، ومن ثم فهى تستبعد بشدة أى محاولة لتفسير الأحداث السياسية • فبعد تأسيسه مماثلة بين (النقود) و (القـــوة) يشير بارســـونز الى الظواهر التى يسميهـا (بتضخم القـــوة Power inflation) و (انكماش القـــوة Power deflation) • ويوحى وصـــفه لهـــذه الظـــواهر بضعف المماثلة ، وبخاصة حينما تبدو الظروف المرتبطة بانكماش القوة مماثلة لتلك المرتبطة بالتضخم النقدى(١٠) • غير أنه من الأكثر أهمية هنا أن نلاحظ أن بارسونز لم يقدم على الاطلاق أى اشارة للأسباب الممكنة لهذه التقلبات السياسية • ومن ثم فهو يصف الماكارثية (كدورة انكماشـــية

---

(١٠) يعنى ذلك بالنسبة لبارسونز ، أن انكماش القوة يقلل السـند الاساسى للثقـة ، التى يعتمد عليها تأثير كثير من العناصر المتصلة بمسئوليات القيادة الرسمية وغير الرسمية ، والتى تدعم بدورها رصيد القوة ، المستقرة بالضرورة • (ص ٣٤٣) • من أجـل نقـد أكثـر شمولا لمفهوم بارسونز انظر مقالة كتبها أنتونى جايدنز بعنوان (القوة فى كتابات بارســونز الاخيرة)

Parsons" Sociology, 2 (3) (September 1968).

Anthony Giddens : "Power in the recent writtings of Talcott

Deflationary spiral فى المجـــال الســياسى) غـير أنه لم يفسر سبب هذه الدورة · ومن ثم فنحن فى النهاية لا نفهم الماكارثية أفضل من ذى قبل ، ولكننا نخلع عليها اسما جديدا فقط ·

ويعتبر المنهج أو منطق فهم الموضـــوع هــو العنصر الثانى الذى استبعده بارسونز من رؤيته للنظرية · حقيقة أنه لا ينتمى بدقة لمجـــال النظرية ، ولكن لمجال ما بعد النظرية Meta - theory بالقـــدر الذى يتضمن تفكيرا فى طبيعة ومكانة النظريات والقضايا السوسيولوجية ذاتها · ومما لا شك فيه أن طبيعة علم الاجتماع وموضوع بحثه أسستا على الدوام فصلا كاملا وعقيما بين المجالين · فلكى تصبح منظرا جيـــدا ، متوقد الذهن ، فانه يجب أن تكون على وعى مستمر بالصعوبات المحـــددة التى تواجه أى محاولة لتفسير الوقائع أو السلوك ، والفعل الاجتماعى · ومن الحقائق التى دعتها أعمال المفكرين السوسيولوجين الكبار ، من ماركس وحتى دوركيم ، أن أيا منهم لم يؤسس نظريتـــه بدون أن يحلل فى نفس الوقت أصولها وبناءها الصورى ·

وبأسلوب ما ، اثاروا جميعهم تساؤلا رئيسيا أصبحت له ، ثانية ، أهمية كبيرة فى المناقشات الحالية يتعلق من ناحية بمكانة وحدود التعميم والتفسير السببى فى علم الاجتماع · ومن ناحيـــة أخرى يتعلق بطبيعة وقيمـــة وصـــدق الادراك الحسى والتخيلى Imaginative للحيـــاة الاجتماعية ، كذلك الذى يجده الباحث مثلا فى مؤلف توكفيل Tocqueville الديمقراطيـــة فى أمريكـــا Democracy in American أو فى مـــؤلف ماكس فيبـــر (الأخـــلاق البروتستنتية وروح الرأســـمالية The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism) ، أو فى الرواية الطبيعية أو رواية النقد الاجتماعى مثل رواية زولا (الجنين Germinal أو رواية دوس باســوس Dos Passos (الولايات المتحـــدة الأمريكية U. S. A.) · والى جـانب ذلك فقـــد أثاروا أيضـــا مجمـــوعة من التساؤلات تتصل بدرجة أكثر أو أقل بصدق ما هو شامل فى مقابل صدق المقولات التاريخية (العقل التحليلى فى مقابل العقل الجدلى) للنظرية الاجتماعية ، أو التى تتعلق بالايديولوجيا والموضوعية

وقد التزم بارسونز بشدة بقاعدته الخاصة التى تؤكد عدم تناول هذه هذه المشكلات بأى قدر أو بأى أسلوب منظم · وهكذا ، فبرغم أنه يشير كثيرا الى الوضعية ، فان ذلك كان دائما بالمعنى الذى ارتبطت فيه الوضعية بالنفعية كاطار تصورى يستند الى فكرة الفعل الفردى العقلانى ، وليس بالمعنى الذى يمكن أن تقابل به الوضعية ، كفلسفة للعلم تؤكد على ملاءمة التفسير السببى للعلوم الاجتماعية ، بفلسفة أخرى للعلم تؤكد اتصال الظواهر الاجتماعية كل بالأخرى ، ويمكن فهمها بأسلوب غير سببى non-Caustl way (بواسطة عملية الفهم Verstehen أو ادراك المعنى Comprehension of Meaning كما يصف ذلك دلتاى Dllthey وماكس فيبر) ·

ومرة أخرى ، فبرغم أن بارسونز كما لاحظت قد فسر مفهومة للفعل باعتباره يتضمن (أهدافا ذات معنى) بطريقة تبدو كما لو أنه يصنف نفسه ضد الوضعيين والسلوكيين ويقف الى جانب هؤلاء الذين يعتقدون أن العلوم الاجتماعية تعتمد على نموذج متميز من المعرفة والفهم ، فقد ظل يستخدم اللغة السببية فى مناسبات عديدة ، الى جانب أنه لم يعتقد فى ضرورة أن يعطى تقريرا مفصلا لمنهجه أو وجهة نظره · ومن الواضح أن توجيه الهدف النظرى قد يصبح أكثر وضوحا اذا هو قد أخذ على عاتقه ، فى مرحلة ما ، أن يفحص الأسس المنطقية لنظريته ·

وبتخلية عن التعميم الامبيريقى من ناحية ، والبحث المنهجى من ناحية اخرى فقد قصر بارسونز نفسه الى حد كبير على تحليل وتصنيف المفاهيم · وبذلك يمكن القول وفقا لبراثوايت R. B. Braithwaite وآخرين ، فان بارسونز قد عمل فى أطار ميز العلوم فى مرحلة سابقة من تطورها · حيث النظرية لا تعنى أكثر من تصنيف الظواهر التى يتضمنها الموضوع ، وهى التى تحدد نطاق المشكلة ، وقواعد الاجراءات ، وأطر التفسير · غير أن هذا القصور غير ضرورى وغير مرغوب فيه بالنسبة لموضوع تقدم لما بعد هذه المرحلة الأولى · على الأقل بمعنى أن علماء الاجتماع الكلاسيكين أنفسهم قدموا تعميمات ونظريات مفسرة يمكن أن

نوافق عليها ، أو نهملها أو نرفضها استنادا لرؤيتنا للدليـــل الامبريقى وأسلوب التفسير الملائم فى علم الاجتماع • غير أن علينا أن نواجهها فى كل الحالات •

وينبغى القول أنه فى مناسبات قليلة نجد أن بارسونز لم يقيد نفسه كلية بالتحليل التصورى ، وفى هذا الصدد فانه من المفيد مقارنة مقالته عن ماركس بمقالته عن دوركيم وفيبر فى مؤلفه (النظرية السوسيولوجية والمجتمع الحديث) • ففى مناقشة بارسونز لدوركيم وفيبر نجده مهتما أساسا بأطرهم التصورية على طول مؤلفه الأول عن الثـــورة المزعومة فى الفكر والتى أنتجت فكرة الفعل الاجتماعى ، غير أنه فى فحصه لفكر كارل ماركس (بأى قدر لأول مرة) نجده قد حدد نطاقا لتحديد موقـــع ماركس فى الحركة العقلية التى انطلقت من تيارى الوضعية النفعية والمثالية الألمانية الى علم الاجتماع الحديث • وبدلا من ذلك نجده قد ركز على نقد التعميمات التفسيرية لماركس • ويبدو لى أن سبب اختلاف المعالجة ظهر من حقيقة أنه بينما وجد بارسونز أن التفسيرات التى قدمها دوركيم وفيبر يمكن الموافقـة عليهـا أيديولوجيا ، نجـد أن تفسيرات ماركس كريهـــة distastful تستوجب الرفض • وينبغى اضافة أن بارســونز لم يرفض هذه التفسيرات فى مقالته بصورة مستقلة ، ولكنه لخص فقط الانتقادات العديدة الموجهة لنظرية ماركس والتى أصبحت الآن مألوفة ، وهـــو لم يقدمها بأسلوب يوضح امكانية اشتقاقها من نظرية بديلة لنظريته •

وبالنظر الى تفضيل بارسونز النظر الى المجتمع من وجهة نظـــر مبادئه الثقافية أو عناصره المعيارية فقط ـ كالمعتقدات الأخلاقية والدينية ـ بدلا من المصالح المادية ، فى تحتيم الفعل ، نجده قد أسس عداءه لماركس • اذ يقول ان أكثر الانتقادات أهمية يتمثل فى محاولة ماركس التى لا يمكن الدفاع عنها لاستبعاد العوامل المعيارية والمثالية من العوامل ذات الأهمية الرئيسية فى تحتيم العملية الاجتماعية ، • ولقد أقر بارسونز هذا الرأى ثانية فى مؤلفه (المجتمعات : منظورات تطورية ومقارنة) • اذ يؤكد أنه لا يمكن الموافقة على نظرية (العامل الواحد) فى التطور الاجتماعى ، ثم يذهب الى القـــول بأن هـذا الصـــــدق الأحـادى elementary truth

(لا يقدم ترتيبا متدرجا للعوامل) ثم يختتم قائلا (انى أعتقد بأن العناصر المعيارية داخل النسق الاجتماعى أكثر أهمية بالنسبة للتغير الاجتماعى من المصالح المادية للوحدات المكونة ٠

وهكذا يؤكد بارسونز ، مثل ماركس ، أولوية عناصر معينة فى الحياة الاجتماعية ، غير أنه على خلاف ماركس الذى شرع يوضح امبيريقيا أن تغيرات هائلة فى المجتمع الأوربى نتجت عن التغيرات فى أسلوب الانتاج ، وعن ظهور طبقات جديدة ، وعن الصراعات الطبقية ، نجده لا يعتبر ضروريا أن يقدم دليلا يدعم اعتقاده فى أن العناصر المعارية أكثر أهمية ٠ وفى مكان آخر من نفس المؤلف فى مناقشته للمسار العام للتطور الاجتماعى نجده يشير الى (ميل المجتمعات نحو التباين الى أنساق فرعية أساسية أربعة (الأنساق الفرعية لنموذجه الذى ناقشته سابقا) غير أنه لم يؤسس تساؤلا يتعلق بأسباب هذا الميل ، تاركا اياه يوضح ، أنه اذا وجد هذا الميل ، فانه يعتمد بطريقة ما على التفوق المدعى للعناصر المعيارية فى الحياة الاجتماعية ٠

وقد سيطر الاعتقاد فى أولوية تأثير القيم والمعايير (وبخاصة القيم الدينية) على اسهامات بارسونز فى مواجهة القول بتأثير المصالح ٠ فمثلا فى تحليلة لمفهوم القوة يرفض ما يسميه منظرى نظرية اللعب Game theory بتصور المجموع الصفرى Zero-sum (وبخاصة كما استخدمه س ٠ رايت ميلز فى مؤلفه صفوة القوة Power elite) ، حيث تتضمن قوة بعض البشر ضعف الآخرين ، لأن هذا الرأى يتضمن وجود الصراع والمصالح المنقسمة فى المجتمع ٠ ومن ثم فقد اختار أن يحدد القوة Power (بقدره النسق الاجتماعى على انجاز الأمور التى تدخل فى نطاق مصلحته الجمعية) ٠ بحيث يفرض ذلك تأكيدا على عدم تجاهل المصلحة الجمعية ، وعلى تكامل النسق من خلال القيم المشتركة ، بينما هو يقلل من أهمية المصالح المتناقضة والصراع الداخلى ٠

وتعتبر هذه بالتحديد وجهة نظر من جانب واحد كتلك التى لماركس ،

وربما أكثر من جانب واحد ، طالما أن ماركس قد سلم بقوة القوى الموحدة في المجتمع والتى تنبثق عن تاثير (الأفكار الحاكمة ruling ideas) في حين أن بارسونز لا يسلم اطلاقا بفكرة (القوة فوق الآخرين Power over others) (أعنى وجود الجماعات الحاكمة والجماعات الخاضعة) · وقد يبدو مفهوم بارسونز عن القوة معقولا فى جانب منه فى حالة المجتمعات الديموقراطية فقط (وبالتأكيد ليس فى حالة النظم الدكتاتورية أو الاستعمارية) ، ومن ثم لا يمكن الاستعانة به على نطاق شامل ، اذ يوجد اعتراض أكثر جدية على أسلوب صياغة هذا التعريف فى مواجهة التعريفات الأخرى · فكيف نحكم بين التعريفات اذن ؟ عن طريق تحديد كيف تعمل فى تفسير الوقائع ، أو فى فهم الموقف · ومع ذلك فقد أسس بارسونز صلة بين مفهومه عن القوة وبين المفاهيم الأخرى لتحليله العام عن المجتمع · وحيثما استخدم قيبر وجون ستيوارت مل ، على سبيل المثال ، مفهوم القوة ، كما حددوه ، لكشف وفهم العمليات السياسية الحقيقية ـ نمو البيروقراطية ، نمو الأحزاب السياسية الحديثة، تخلق صفوة القوة ـ دار بارسونز بلا توقف فى دورة المفاهيم والمماثلات ، وحتى ذلك الوقت حيث كان يستخدم مفهومه عن القوة ، لنقل فى دراسات تشكل الأمم الجديدة ، أو ثورات القرن العشرين ، أو حركة القوة السوداء ، فان قيمته لا يمكن تحديدها ·

وأعتقد أن كثيرا من علماء الاجتماع قد وجدوا أن من الصعب للغاية التعامل مع تفكير بارسونز ، حتى لو تغلبوا على عدم تحدد اللغة · اذ لا تبدو الاستكشافات التصورية المتكررة ، والتصنيفات المتقنة · التى تصوغ باصطلاحات أخرى تمييزت أساسية قامت منذ زمن بعيد بين النظم الاقتصادية والسياسية والدينية وغيرها من النظم ، يمكن أن تقود فى اتجاه محدد ، أو نحو توضيح القوى الجوهرية التى تعمل فى المجتمع الحديث · فما هو مفتقد بصورة أكثر وضوحا وجود محور ، ومجموعة من القضايا التى يمكن أن تتأسس حولها نظرية سوسيولوجية ، كتلك التى أسسها آخرون وجهوا فكرهم نحو قضايا الطبقة ، وعدم المساواة ، والعلم ، والاتجاه الى التصنيع ، والرشد والبيروقراطية ·

وتضم أفكار بارسونز العامة نظرة محافظة بوضوح · حيث يلعب الاعتقاد فى الاستقرار ، والتكامل والنظام والتأثير الحتمى للقيم الدينية دورا رئيسيا · بل حتى هذه النزعة ليست نزعة محافظة فعالة كتلك التى يمكن ان تقود الى تفسير محدد للفرص والمخاطر التى يواجهها البشر ، أفرادا أو جماعات ، فى عالمهم الحديث · ولكنها نزوع محافظ غير معلن أو محدد ، منتشر ، ومنفصل يكشف عن نفسه بدرجة أكثر فى كل مدخل بارسونز نحو موضوع الاهتمام ، منه فى أى صياغات امبيريقية عن المجتمعات الواقعية(١١) · حتى المفهوم الأساسى (للفعل الانسانى Human action) الذى رآه آخرون على أنه يتضمن مشروعا أساسيا ، قتله بارسونز ، وأصبح الفعل لديه كما يبدو فى لحظة من الزمن، بدون أى توجيه نحو المستقبل ، مدانا فى اطار تصنيف لنماذج الفعل الاجتماعى ·

وليس هناك موضع يبتعد فيه بارسونز عن عالم الفعل الواقعى أكثر مما هو واضح فى كتابه (النظرية السوسيولوجية والمجتمع الحديث) فمن الخواص الغريبة لهذا الكتاب أنه لا يبدو متعلقا بالمجتمع الحديث على الاطلاق ، بأى صورة محددة · اذ لم تذكر خلاله اطلاقا مسائل كالعلم ، والصناعة ، والنمو السكانى ، والمجاعة ، والثورة والتحيز العرقى ، والصراع ، والحرب النووية ، أو حتى اعطيت انتباها سريعا · ولم يحدث اهتمام بالوقائع أو الموضوعات التى تهيج ، وتربك ، وتثير ، أو تخيف البشر فى مجتمعنا الحالى ، والتى تولد القهر والتمرد ، وتضاءل أسهام علم الاجتماع فى نطاق الفهم والحكمة العملية حتى وصل الى مستوى الاقتراحات السطحية كأن نقول (··· انه يجب بذل كل جهد لكى ننشر بوعى القضايا ذات الالتزام القيمى ، والتى يمكن أن توفر الأساس

---

(١١) غالبا ما تكون رؤية بارسونز لبعض القضايا الاجتماعية ذات طبيعة ليبرالية ، مع انها لا تكون راديكالية أبدا ، اذ يحدث عادة فى هذه الحالات أن يتبنى بارسونز بعض تحديدات مفكرين آخرين للموقف ·

للاتفاق بين كل من الأمم الفقيرة والغنية(١٢) فكيف يمكن لنـا أن نكشف عن اتجاه واضح ، أو اهتمام أو مصلحة حيوية فى فكر غير ملائم بصورة تامة ؟ ٠

---

(١٢) **Sociological theory and Modern Society** (New York, 1967). P. 45.